المحاضرة السابعة:

التركيبة السكانية للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني

اختلفت الروايات المتعلقة بإحصاء سكان الجزائر أواخر العهد العثماني حيث يذكر حمدان بن عثمان خوجة في كتابه المرآة أن عدد سكان إيالة الجزائر قدر بعشرة ملايين نسمة غير أن الإحصائيات الفرنسية تنفي هذا الرقم نفيا قاطعا وتعتبره ضخم جدا، ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عدد السكان في الجزائر كان حوالي ثلاثة ملايين نسمة ويبدو هذا الرقم معقولا باعتباره رقما تقريبيا. وهم موزعين على المدن والأرياف حيث تعيش غالبية هؤلاء السكان في الأرياف أما المدن فتستقطب فئة قليلة لا تتعدى ٥% من مجموع السكان.

وقد عرفت التركيبة السكانية لمدينة الجزائر تغيرات واضحة إذ أصبحت تتميز بتنوع أجناسها وتعددها نوضحها في النقاط الآتية:

أ- سكان المدن (الحضر): تتكون هذه الفئة من مجموع الأقليات السكانية ومن أهم فئاتها نجد:

١- الأقلية التركية: تأتي هذه الفئة في أعلى السلم الاجتماعي تتمركز في المدن الكبرى والبايلكات عددهم قليل جدا، يتميزون بالقوة والنفوذ الواسع في البلاد من خلال هيمنتهم العسكرية والسياسية في ايالة الجزائر، كانت معظم وظائف الدولة من نصيبها فهم الطبقة الحاكمة وأعضاء من فرق الإنكشارية كما كان منهم أعضاء في الديوان.

اختلفت أصولهم وأجناسهم ففيهم القادمين من الديار التركية خاصة منطقة الأناضول أو تركيا الأسيوية، أغلبهم من فرق رياس البحر. وفيهم أتراك أوروبا

الذين اعتنقوا الإسلام (الأعلاج) وهم أكثر عددا من الأتراك الأصليين.

فرغم اختلاف أصولهم وأجناسهم إلا أنهم شكلوا مجموعة واحدة متميزة بلغتها التركية ومذهبها الحنفي. كما تخضع لنظام قضائي خاص،لها امتيازات خاصة يرتدون ثيابا مطرزة بالذهب ويحملون السلاح ويعزفون عن خدمة الأرض وكان معظمهم يفضل كسب عيشه من المرتبات التي يحصلون عليها من خزينة الدولة أو من إيجار المحلات أو البساتين التي يملكونها في المناطق التي يقيمون فيها.

وظلت الأقلية التركية قليلة العدد حيث لم يتجاوز عدد أفرادها أواخر القرن ١٦ عشرة آلاف نسمة ولم يزد في الربع الأول من القرن ١٧م عن ١٢ ألف وظل العدد ثابت تقريبا حتى أوائل القرن ١٩م، فرغم طول الفترة التي قضاها الأتراك في الجزائر والتجائهم إلى استقدام جماعات تركية أخرى من وقت لأخر للانضمام إلى فرق الجيش الإنكشاري إلا أن عددهم بقي قليلا وهذا راجع إلى حالة العزوبة التي كان يعيشها أغلب أفراد الجيش التركي هذا بالإضافة إلى انتشار بعض الأمراض والأوبئةالتي كانت تظهر عادة على السفن التي تنقل المجموعات المتطوعة والقادمة من بلاد الأناضول.

٢- فئة الكراغلة: يعود ظهور الكراغلة كفئة اجتماعية إلى بداية العهد العثماني عقب سماح خير الدين بربروسللإنكشارية بالزواج بعدما كان رافضا لهذه الفكرة، وقد نتج عن زواج بعض عناصر الجيش الإنكشاري من نساء جزائريات أطفالا عرفوا بالكراغلة أي أبناء الإنكشارية ظهرت لأول مرة في المدن الكبرى التي تمركزت بها الحاميات التركية كالجزائر، تلمسان، مستغانم، مازونة، بجاية...، تعتبر ثاني أكبر الفئات السكانية في الجزائر بعد الأتراك

فأصبحوا يشكلون غالبية السكان حيث وصل عددهم نهاية القرن ١٨م في مدينة الجزائر حوالي ٦٠٠٠ ن، وكان أول كرغلي بالجزائر هو حسن بن خير الدين بربروس من ابنة أحمد ابن القاضي زعيم مملكة كوكو البربرية.

كان الكراغلة يرغبون في التمتع بامتيازات آبائهم، غير أنه تم إقصائهم من المناصب الحساسة وظلوا مهمشين من طرف الحكام العثمانيين. وذلك خوفامن سيطرتهم على شؤون البلاد، خاصة وأن لهم قرابة من الأهالي (أخوالهم) هذا بالإضافة إلى ارتباطهم بالبلاد. فكانوا قادرين على تكوين حلف وطني يهدد امتيازات الفئة التركية لذلك كان الحكام يتوخون الحذر منهم ويقفون أمام توليهم مناصب سامية سواء في الجيش أو الإدارة. كما منعوهم من الانخراط في الديوان وهو الامر الذي استاء له الكراغلة ودفعهم إلى تنظيم انقلاب عسكري ١٦٣٠ بهدف الاستيلاء على الحكم غير أن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع وانجر عن ذلك مقتل عدد كبير منهم ونفي بعضهم خارج مدينة الجزائر، وبقي الكراغلة يترقبون فرصة الثأر من خصومهم حتى جاءت فترة حكم حسين باشا فأعلنوا الثورة ضده نتيجة عجزه عن دفع مرتبات الجند فتسللوا إلى المدينة وحاولوا محاصرة القلعة مما تسبب في انفجار مخزن البارود الموجود بالقلعة التي كانت في أيدي الثوار. فوضع ذلك حدا للثورة وانجر عن ذلك مقتل عدد معتبر منهم فأجبروا على الانسحاب وبقي الكراغلة في عزلة مجردين من حقوقهم وامتيازاتهم حتى جاءت فترة حكم الأغوات خاصة فترة حكم شعبان أغا (١٦٦١-١٦٦٥) الذي انتهج سياسة الترضية لهذه الفئة وأصدر قرار ينص على ضرورة معاملة الكراغلة كبقية العناصر التركية وسمح لهم بحق الانتساب للأوجاق، غير أن هذا الانتساب لم يصل إلى حد المشاركة الفعالة في الجيش

والإدارة أو الوصول إلى السلطة كمسؤولين كما تم إصدار وثيقة عهد الأمان تم فيها استيعاب فئة الكراغلة.

لقد كان لسياسة الترضية والتقارب التي انتهجها الأتراك أثر سيئفي العلاقة القائمة بين الكراغلة والأهالي، إذ أصبح الجزائري ينظر إلى الكرغلي نظرة شبيهة بنظرته للسادة الأتراك الحاكمين.

كما سمح الحاج شعبان داي لفئة الكراغلة عام ١٦٩٣ بالتجنيد والتسجيل ضمن قوات الإنكشارية وذلك لحاجة البلاد إلى أعداد إضافية من الجنود ولتأخر وصول مجندين جدد من الأناضول وجاء ذلك أيضا بعد الوباء الكبير الذي شهدته الجزائر ما بين (١٦٤٨-١٦٥٠) الذي أودى بحياة عدد كبير من السكان من ضمنهم أعضاء من فرق الإنكشارية.

لقد كان الاعتماد على فئة الكراغلةكفرقة عسكرية أكثر من ضرورة خاصة على مستوى البايلكات الثلاثة باستثناء دار السلطانالتي كان عدد الأتراك بها كافيا لتغطية معظم الحاجيات. لذلك تولت هذه الفئة مناصب سامية بعد تحسن العلاقات بينها وبين السلطة الحاكمة حيث أسندت لهم بعض الوظائف على مستوى الإدارة المركزية والمحلية وقد احتلوا منصب الباي لذلك نجد قد تولى الكرغلي مصطفى العمر (١٦٣٦-١٦٤٨) بايلك الغرب والكرغلي محمد الذباح (١٦٠٨-١٦٧١) بايلكتيطري، وأحمد باي بايلك الشرق (١٨٢٦-١٨٣٧).

وبهذا يكون الكراغلة قد تقلدوا مناصب عدة بالإيالة الجزائرية منها العسكرية والإدارية وحتى الاقتصادية من خلال اهتمامهم بالصناعة التقليدية والحرفية كما مارسوا التجارة بنوعيها الداخلية والخارجية.

٣- **طبقة الحضر**:تتكون من العائلات الحضرية المتأصلة بالبلاد ومن

مهاجري الأندلس الذين استقروا في بعض المدن الجزائرية بعد تعرضهم للاضطهاد الإسباني في الأندلس عام ١٦١٠، وهم الذين وفدوا إلى الجزائر بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ آخر معقل من معاقل الأندلس في يد النصارى الإسبان حيث حل بمعظم المدن الساحلية الجزائرية عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين الفارين من اضطهاد الإسبان الذين استولوا على أملاكهم وديارهم وهددوهم في عقيدتهم ولغتهم، حيث لقيت اهتمام كبير من طرف الحكام وحظيت برضا الأهالي وتعاطفهم وقد استمرت موجات الهجرة بنسائهم وأطفالهم بعد ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية وتزايد عددهم بشكل كبير في الربع الأخير من القرن ١٦م وقد واجهوا في البداية مشاكل عدة منها مشكلة الفقر، لذلك أنشأت لهم أحباسا عرفت بأوقاف الأندلس.

ومن أشهر المدن التي حلوا بها هي شرشال، تنس، مستغانم، الجزائر، دلس، بجاية وعنابة، فوجد هؤلاء المهاجرون في الجزائر أرضا كأرضهم وأهلا كأهلهم فاستوطنوا وأسهموا في جميع مجالات الحياةكمضاعفة الكفاح ضد الإسبان في البحر والثغور دفاعا عن النفس، بالإضافة إلى نشر أنماط حضارتهم بين الجزائريين فتطور بذلك فن العمارة والموسيقى والطب.كما مثلوا عاملا إيجابيا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ومارسوا عدة أنشطة تجارية وحرفية ووظفوا فيها مهاراتهم وخبراتهم. اهتموا أيضا بصناعة النسيج والملابس وحياكتها ودباغة الجلود وصناعة الشاشية والأنسجة الحريرية. كما كان لهم نصيب في الحياة الثقافية حيث أدخلوا مناهج جديدة في التعليم وتفننوا في صناعة الكتب والورق.

وقد تمركزت الجالية الأندلسية في بعض المدن مثل شرشال، البليدةوالقليعة

وأعادوا بناء عدد مهم من دورها ووزعوا الأراضي فيما بينهم كما صنعوا الكثير من السفن للملاحة وأدخلوا مزروعات جديدة كالقطن بمستغانم وعنابة، والمعروف عن هذه الفئة أنها لم تطمح في الارتقاء إلى مناصب في القضاء والإفتاء والكتابة. وهكذا أصبح الأندلسيون يشكلون عنصرا مهما وبارزا في الجزائر وأضافوا الكثير بذكائهومومهاراتهم وعلمهم وصنائعهم فاستفادت الجزائر منهم خير استفادة.

٤- **فئة البرانية:** تتشكل هذه الفئة من أناس جاؤوا من مناطق داخلية (أرياف) وهي تنتمي لعدة مناطق تنسب إليها منها الميزابيونوالبسكريون والقبائليون والجيجليونوالأغواطيون، حيث قصدوا مدينة الجزائر إما للعمل ثم العودة إلى أوطانهم الأصلية بعد جمع بعض النقود أو لقضاء فترة من الراحة علما بأنهم كانوا يتوجهون إلى الجزائر دون عائلاتهم وقد امتهنوا عدة مهن وقاموا بنشاطات مختلفة خلال العهد العثماني.

١-**الميزابيون:** ينتمي هؤلاء إلى منطقة وادي ميزاب الذي يحده شمالا جبال الأطلس الصحراوي ومن الغرب والجنوب الغربي قورارة وتوات ومن الجنوب الأهقاروالطاسيلي ومن الشرق الحمادة الحمراء ومنطقة غدامس.

كانت هجرة الميزابين إلى المدن الشمالية لاسيما مدينة الجزائر منتظمة وهي ضرورية من أجل العمل فهي الوسيلة الوحيدة للكسب العائلي، وقد عاش هؤلاء الأفراد في انغلاق على أنفسهم لكنهم كانوا أكثر الطوائف البرانية تعاونا وتضامنا فيما بينهم.تعود سنة وصول بني ميزاب على مدينة الجزائر إلى بداية القرن ١٦م. فمنذ أن تقلد العثمانيون مقاليد الحكم بالجزائر كان إباضية الجزائر بوادي ميزاب مستقلين عن أي حكم أو دولة في تسيير شؤونهم الداخلية والتي

كان يتولاها مجلس العزابة ومختلف هياكله الاجتماعية والدينية التي تدير شؤون المجتمع الميزابي. وقد فكر الميزابيون مليا في بقائهم منعزلين في صحرائهم يترقبون تطور الأحداث ووصول الدولة العثمانية إليهم أو بناء علاقات طيبة معهم، وقد وقع نقاش حول طريقة التعامل مع الإدارة العثمانية والحكم العثماني في الجزائر وتم الاتفاق على عقد معاهدة حماية أو دفاع مع السلطة العثمانية بالعاصمة، وكان ذلك عام ١٥١٦ ومن بنودها مايلي: ترك السلطة للميزابين في تسيير شؤونهم الداخلية والاعتراف بمذهبهم الإباضي واحترام أعرافهم وحماية ممتلكاتهم وتجارتهم حول مختلف مناطق الجزائر، وضمان سلامتهم في تنقلاتهم وأسفارهم وحماية قوافلهم التجارية التي كانت تجوب بلاد الجزائر شرقا وغربا وتتعداها أحيانا إلى تونس والمغرب مقابل ولاء الميزابين للدولة العثمانية وتقديمهم خراجا أو ضريبة سنوية يتولون إيصالها بأنفسهم إلى مركز السلطة بالعاصمة، وبالتالي تكون هذه المعاهدة بمثابة أول وثيقة رسمية تربط سكان صحراء الجزائر بشمالها تحت راية العثمانيين،لقد التزمت الدولة العثمانية عموما بعدم التدخل في شؤون الحكم بوادي ميزاب وأبقنت تبعيته إليها شكلية إسمية طوال فترة حكمها بالجزائر.

وقد شارك إباضية الجزائر عام ١٥١٨ في رد حملات الإسبان على السواحل الجزائرية حيث استشهد الكثير منهم في معركة حسين داي المشهورة بمعركة كدية الصابون، كما قاموا بعملية فدائية عرفت بنسف دار البارود إحدى مراكز الذخيرة الإسبانية في الجزائر العاصمة وفيها قتل عدد من ضباط الحملة الإسبانية واستشهد فيها قرابة الثلاثين فدائيا ميزابيا وهي معروفة بواقعة برج بوليلة.

٢- البساكرة: نسبة إلى بلدهم الأصلي بسكرة يقطنون المناطق الجنوبية التي تقع على أطراف الصحراء وراء منطقة الشط حيث لا توجد معلومات عن بداية قدوم البساكرة واستقرارهم بمدينة الجزائر. غير أنه يرجح بأنهم وفدوا إليها أواخر القرن ١٦م وأصبحوا يشكلون جماعة على غرار الجماعات الأخرى وما يميزهم الجدية فهم يختلفون في مظهرهم وسلوكهم عن غيرهم من القبائل العربية الإفريقية، يخضعون لسلطان الجزائر ويعتبرون من أهدأ العناصر في المملكة، وكانت السلطات تحتفظ بحامية تركية في أراضي بسكرة تحت سلطة قايد تستخدمهم الحكومة في إنجاز الأشغال العمومية وهم يعملون أيضا وسطاء في التجارة بين مدينة الجزائر وغدامس، كما أنهم قوم مسالم ومخلص وكثيرا ما يستخدمون في المنازل حيث يتمتعون بثقة الناس، يحتكرون صناعة الخبز، كما أن معظم أفراد هذه الجماعة كانوا يشتغلون في الميناء لاسيما عملية شحن وتفريغ السفن من بضائعها بالإضافة إلى العمل في الحمامات والقصابات والطواحين، كما يعملون في تنظيف الشوارع والمنازل ويقومون بالحراسة في الليل.

٣- الأغواطيون: ينتسبون إلى مدينة الأغواط حيث يسكنون الجبال التي تقع على حدود الصحراء (جبال الأغواط) يعيش بعضهم من تربية المواشي وبعضهم الآخر من الفلاحة كما يتولى بعضهم أعمال متواضعة مثل الوزن والكيل بأسواقالجزائر وبيع الزيت، ويشتغل عدد منهم بالتنظيف ونقل البضائع وغيرها.

٤- القبائل: من أهم المجموعات البرانية عددا فهم يشكلون الأغلبية الساحقة بين سكان الجزائر، يسكنون الجبال ويفضلون قممها، يقطنون في قرى

يسمونها دشرة تتكون من أكواخ مبنية من طين. القبائل شعب نشيط وذكي يعيشون من زراعة أرضهم وتربية مواشيهم وكل ما يحتاجون إليه، ينسجون عدة أنواع من الأقمشة الصوفية لاستعمالهم الخاص يستهلكون زيت الزيتون. كما يعرفون صناعة الصلب الذي يستخدمونه في صناعة عدة أنواع من الأسلحة وسكاكين المائدة كما يحسنون صناعة البارود والمدافع، والقبائلي يتعلق بمسقط رأسه إلى حد بعيد بحيث أن القناصل يجدون صعوبة في الاحتفاظ بواحد منهم أكثر من ستة أشهر. والقبائل حين يجدون أنفسهم في الجزائر يضطرون إلى الخضوع لأحكام الإسلام خوفا من غضب السلطة،لكنهم بمجرد ما يعودون إلى بلادهم يتحررون من جميع القيود الدينية بل أنه لا توجد لديهم أية أحكام أخرى تحل محلها.

٥- **اليهود:** انتشر اليهود في شمال إفريقيا وهناك بشروا بديانتهم وتمكنوا من تهويد بعض القبائل البربرية، حيث يقول ابن خلدون في تاريخه إن اليهودية انتشرت في المغرب العربي قبل الإسلام، وأخذت بعض قبائل البربر بدين اليهود مثل قبيلة جرادة التي سكنت جبال الأوراس وقبائل أخرى.

أما في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني فكانت توجد جالية يهودية يقدر مجموع عددها حسب وليام شالر بحوالي ثلاثة آلاف نسمة وهم حسب رأيه من جنس متين البنية، حسن التكوين والبشرة، لكن حالة الذل والبشع التي ولدوا فيها ويعيشون عليها تترك في وجوههم آثارا تميزهم عن غيرهم.

توجد في الجزائر ثلاث فئات رئيسية من اليهود نذكرها فيما يلي:

١- **يهود الأهالي (التوشاييم):** هي الفئة التي هاجرت إلى الجزائر وشمال إفريقيا عامة بعد الفتح الإسلامي خاصة أثناء الهجرة الهلالية الكبيرة من

المشرق إلى المغرب في القرن ١٠م هذا النوع من اليهود احتفظ بعقيدته الدينية وشكلوا خلايا اجتماعية دينية متماسكة ولم يعتنقوا المسيحية ولا الدين الإسلامي وهم عدد قليل وصفوا بالجهلة والبؤساء الذين اعتمدوا لباس المسلمين وتخلقوا بأخلاقهم، وقد تراجع عددهم مع مرور الوقت تراجعا كبيرا ونتيجة لاندماجهم في محيطهم الاجتماعي اندماجاواضحا لقبهم الجزائريون باليهود العرب أو اليهود الأصليون وأطلق عليهم الأوروبيون اسم يهود الأهالي، يكتسبون قوتهم من محصول نشاطاتهم الاقتصادية واحترفوا بعض الحرف كبائعين متجولين في الطرقات والشوارع.

٢- **يهود الإسبان (الميغورشيم أو الأندلسيون):** لجأت هذه الفئة إلى الجزائر عندما بدأت مدن والحواضر الأندلسية تسقط منذ القرن ١١م بدءًا بطليطلة عاصمة إمارة ذي النون سنة ١٠٨٥، وتوالت بعدها المدن الأندلسية في السقوط الواحدة تلو الأخرى على يد النصارى الإسبان حينها خرج اليهود والمسلمون، واستقر قسم منهم في بلاد المغرب العربي فشكلوا أكبر جالية يهودية في الوطن العربي، وصل تعدادها إلى ربع مليون نسمة، وقد ساهمت هذه الفئة في الحياة الاقتصادية وكانت تتمركز في أهم المدن الساحلية خاصة عواصم الأقاليم ومدينة الجزائر بوجه خاص، كما سكنت في بعض المناطق من الصحراء وتوقرت وبوسعادة ووادي ميزاب وغيرها من مناطق الجزائر.

٣- **يهود الليفورن:** تنتمي هذه الفئة جغرافيا وثقافيا إلى أوروبا، كان استقرارها بالجزائر حديثا، حيث قدمت من مدينة ليفورن الإيطالية في الفترة الممتدة من ١٧٢٠-١٧٤٠ ثم في عهدي حسن باشا ومصطفى باشا، لقبوا باسم يهود المسيحيين أو النصارى أو الإفرنج ما يميزها هو التفوق التقني

والثقافي بسبب احتكاكها الكبير بالنهضة الأوروبية وبحركية التطور الشامل في مختلف ميادين الحياة. تنتمي إليهم عائلتي اليهوديين بكري وبوشناق اللذين ما لبث أن تحولوا إلى عنصر سياسي واقتصادي قوي في الجزائر حيث نجحوا في احتكار التجارة والاشتغالبالصيرفة وصناعة الحلي ومتاجرة الذهب والفضة وخياطة الأقمشة وتحكموا في المبادلات التجارية مع البلدان الأوروبية فكانوا سببا في توسع الدول الأوروبية في مناطق المغرب العربي.

لقد اكتسب يهود مدينة الجزائر وباقي المدن الأخرى عادات وتقاليد الأهالي واتخذوا من اللغة العربية كأداة تعبير في معاملاتهم اليومية وطقوسهم الدينية لقد اندمج اليهود في الحياة العامة بالمدن الجزائرية وذلك بسبب ثقة الحكام الأتراك فيهم وتفضيل الأندلسيين التعامل معهم نظرا لكون أغلب اليهود ذو أصول أندلسية يتشابهون معهم في طرق العيش وأسلوب الحياة والاشتغال في المهن اليدوية وما يميزهم أيضا ارتدائهم لثياب سوداء.

٦- **الأوروبيون:** كانوا يعيشون في مدينة الجزائر وبعض المدن الساحلية وهم ينقسمون إلى فئتين وهما:

أ- **الأوربيون الأحرار:** يتألفون أساسا من التجار ورجال الدين المسيحيين والقناصل وبعض الرحالة والأطباء والصيادين، وهم يقيمون غالبا في المدن، عددهم قليل جدا مقارنة بالفئات الأخرى خاصة اليهود الذين سيطروا على مهنة التجارة كان هؤلاء يعيشون في معزل عن باقي السكان ولا يخضعون للمعاملات المالية والأحكام القضائية والقوانين المعمول بها في البلاد، يسكنون فنادق معينة أو يقيمون في أحياء منعزلة أو منازل خاصة بهم في ضاحية باب الواد أو خارج باب عزون أو في المرتفعات المشرفة على المدينة.

ب- الأسرى المسيحيون: كان يوجد في الجزائر عدد من الأسرى المسيحيين الذين تعود أصولهم إلى مختلف الدول الأوروبية إضافة إلى وجود الأسرى الأمريكيين، عددهم غير مستقر تتحكم فيه بعض الظروفكطبيعة علاقات الجزائر مع الدول الأوروبية ومدى تفوق أسطولها.

وقد اتخذت الدول الأوروبية من مسألة الأسرى ذريعة للاعتداء والهجمات المتكررة على سواحل الإيالة، فكان هؤلاء الأسرى متواجدون في عدة مدن منها وهران، قسنطينة، عنابة، وتلمسان والجزائر التي استقطبت عدد كبير منهم نظرا لقوة المعارك التي كانت تخوضها ضد الدول الأوروبية حيث كانت تشكل المصدر الأساسي للأسرى وقد كان من ضمن الأسرى النساءوالأطفال وأصحاب المهارات والأدباء وكانوا يعملون مختلف المهن كالبناء والنظافة والزراعة... وبعض هؤلاء الأسرى اعتنقوا الإسلام وأصبحوا أتراكا عثمانيين لغة وجنسية وارتقوا في مراكز النفوذ وقد وصل عدد الأسرى في القرن ١٦م إلى خمسة وعشرون ألف أسير وعرف العدد المذكور ارتفاعا محسوسا في القرن ١٧م حيث قدر بخمسة وثلاثين ألف أسير وكان ذلك نتيجة تزايد الغزو البحري للجزائريين آنذاك.

ومن خلال ما سبق نستخلص أن الجزائر خلال العهد العثماني قد عرفت تنوع في بنيتها الاجتماعية إذ قطنتها عدة أجناس من أصول مختلفة ومناطق متعددة، وكان لها دور كبير وإسهامات عدة في المجتمع الجزائري.

ب- سكان الأرياف: شكل سكان الريف غالبية سكان الجزائر في العهد العثماني بنسبة ٩٥% من مجموع سكان الإيالة، ويمكن تصنيفهم حسب موقعهم من السلطة العثمانية والامتيازات التي يتحصلون عليها:

١- **قبائل المخزن:** هي مجموعة سكانية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية لما تقوم به من أعمال وتؤديه من أدوار وهي لا تعود في أصولها إلى نسب واحد ومقابل تحالفها تحصل تلك القبائل على جملة من الامتيازات، فهي تساهم أساسا في تدعيم الجيوش النظامية في عملية جمع الضرائب ومعاقبة المتمردين عن دفعها وتتحصل مقابل ذلك على إعفاءات جبائية أو إقطاعات كما تحصل على مرتبات وبعض التجهيزات العسكرية والمؤونة.

انتشرت القبائل المخزنية في البايلكات الثلاثة وضواحي دار السلطان وبالقرب من الأبراج والأسواق الأسبوعية وأهم الطرقات التي توجد بها المنشآت الاستراتيجية، حيث تصنف إلى ثلاثة أنواع:

أ- قبائل محلية العريقة التي كانت تحتل الأراضي الخصبة وقد جعلها موقعها عرضة للحملات العسكرية ولهذا فضلت التعامل مع العثمانيين مقابل الاحتفاظ بأراضيها وتوفير الدعم الضروري للإدارة العثمانية.

ب- القبائل الاصطناعية التي شكلها الأتراك العثمانيون من عناصر غير متجانسة ومعظم أفرادها مغامرين ومغتنمي الفرص والعبيد والذين تم عتقهم وقد أرغمتهم الظروف على وضع أنفسهم تحت خدمة الأتراك مقابل استفادتهم من الأراضي وبعض الوظائف العسكرية والإدارية وكانت الإدارة العثمانية تجند من تلك القبائل فرسان فرق زمالة والدواير والعبيد وتم تدعيم هذه القبائل بالعناصر الكرغلية أو العبيد.

ج- القبائل الممتنعة أو المستقلة: تألفت في معظمها من القبائل التي تعيش في المناطق الجبلية كالبابور وجرجرة والونشريس، الشمال القسنطيني، هضاب وهران، هي التي أرغمت عن طريق القوة على الدخول ضمن قبائل

المخزن، إلا أنها لم تكن تلتزم بالوضع الذي فرض عليها فأحيانا تتخلى عن وضعها المخزني لتعود إلى وضعها الأصلي نذكر منها قبائل نزليوة في أعالي وادي يسر التي كان رجالها يشكلون فرق الصبايحية.

٢- **قبائل الرعية:** تتشكل من أغلبية سكان الريف الذين يقومون بممارسة الزراعة وخدمة أراضي الدولة كأجراء أو خماسين أو استغلال الأراضي الخاصة بهم ونظرا لخضوعها لموظفي الدولة فهي مطالبة بتقديم أنواع عديدة من الجبايات والمساهمة بخدمات إلزامية (التويزة) لمصالح الدولة وموظفيها وأعيانها، كما أنها ملزمة بتنفيذ تعليمات موظفي الجهاز الإداري المركزي من شيوخ القبائل وقادة العشائر فالشرق الجزائري كانت قبائل الرعية به تخضع إلى ٢٤ قائدا وشيخا.

وقد تعرضت هذه القبائل إلى عدة أصناف من الاستغلال والضغط الأمر الذي دفعها في بعض الأحيان إلى شق عصا الطاعة ضد الحكام الأتراك وحلفائهم قبائل المخزن أملا في تحسين ظروفها المعاشية أو تحت تأثير التحريضات الخارجية.

٣- **القبائل المتحالفة:** هي القبائل التي تعاملت مع البايلك عن طريق زعمائها المحليين الذين توارثوا الحكم معتمدين في ذلك على كفاءتهم الحربية أو الدينية أو أصالة نسبهم منهم من عرف بالأجاود أو النبلاء، وقد اضطرت السلطة التعاون معهم مقابل إخضاع عائلاتهم مثل الدواودة والأحرار في الشرق الحنانشة وأولاد بن عاشور في فرجيوة، ولاد عزالدين في الزواغة وقد كان هؤلاء الأجواد سادة في مناطق نفوذهم، كما نجد المرابطين الذين تقربت منهم السلطة التركية مانحة إياهم بعض الامتيازات مقابل التوسط بينهم وبين السكان. وبغض

النظر عن دور هذه الزعامات فإن الإدارة العثمانية عرفت كيف تتعامل أو تقلل من نفوذها وإضعاف تأثيرها في أوساط الريفين، وقد انتهجت أساليب محكمة لتحقيق تلك الأهداف ومن جملتها سياسة المصاهرة المصلحية التي اتخذها الحكام العثمانيين في بايلك قسنطينة كوسيلة سياسية للسيطرة على البلاد وقد طبقت هذه السياسة في بداية الحكم العثماني مع شيوخ القبائل بالريف دون المدينة، وقد حققت تلك السياسة استقرارا سياسيا دام أكثر من ثلاث قرون.